النّحو الــعربي في مرحــلة النّـشأة والبـــناء

قـــراءة إبســتمولوجــية

عبد الكـــــريم بن محـــمد

كلية الآداب واللــغات

جامــعة محمد لمين دباغين- سطـيف2

الملـخص:

تبحث هذه المقالة في ظـروف وملابسات نـشأة النّحو العــربي من زاوية المقاربة الإبستمولوجية وتهدف إلى الإجابة عن الأسئلة التي ما فتئت تطرح حول الخلفية المعرفية التي طبعت سير الدرس النحوي عند النحاة العرب الأوائل وعن المنهج البحثي المعتمد، والمصطلحات التي استعملوها والمستويات اللغوية التي طالها وصفهم وتحليلهم ، كما تحاول هذه الدراسة الخوض في قضية علاقة النحو العربي بالثقافات الأجنبية في مراحل تأسيسه الأولى.

Abstract

This article examines the circumstances of the emergence of Arabic grammar from the angle of epistemological approach, , and aims to answer questions that have been raised about the background knowledge.Tha twerefollowed by the first arab grammarians in their lesson grammar process ,in addition to the terms and language levels.This study also attenpts to deal with the reltionship between arabic grammar and foreign cultures in its first foundation stage.

Résumé

Cet article traite l'émergence de la grammaire arabe d'un point de vue épistémologique. Il se veut en fait une réponses aux questions liées aux composantes cognitives, méthodologiques, terminologiques du Cours de la grammaire arabe ainsi que les niveaux de la langue et la relation avec cultures étrangères.

حينما ينظر أحدنا في مسيرة نشأة وتطور العلوم والفنون قديما وحديثا، في مختلف الحضارات البشرية، وإلى طبيعة حركية محورها عبر مساراتها الزمنية المتعاقبة من لحظة الميلاد إلى مرحلة النضـج والاكتهال يدرك منذ البدء أن زمن تشييد صرح الكثير من هذه العلوم تطلب حقبا زمنية طويلة تستوعب في أغلب الأحيان العشرات من أجيال العلماء لتنتج في الأخير تراكما علميا ومعرفيا وكما هائلا من الخبرات المتواصلة يأخذها اللاحق عن السابق، كل يضيف حسب طاقته وطبيعة زمانه وبيئته. لكن هذا الأمر انتفى أو كاد أن ينتفي في مسيرة نشأة علوم اللغة العربية عموما وعلم النحو على الخصوص، إذ شذّ في نشأته ومراحل بنائه واكتهاله عن هذه القاعـدة. وظاهرة الشذوذ هـذه ربمّا نجد ما يفسّرها ويبرر وجودها في ضوء طبيعة الإسلام ذاته، وما تميز به حركية خاصة وفريدة، ومن سرعة انتشار في أنحاء المعمورة في ذلك الزمن هذا من جهة، ومن جهة أخرى حاجة المسلمين المستعجلة إلى علوم مقننة للسان العربي لتحفظ سلامة النص القرآني وتضمن له الأداء والفهم الصحيحين في بيئة فشا فيها اللحن بسبب اختلاط العرب بغيرهم، ودخول الناس في الدين الجديد أفواجا "فلما كانت الفتوحات واختلاط العرب الفاتحين بالشعوب التي كانت تحت سيطرة الفرس و البيزنطيين والأحباش ودخول كثير من هؤلاء في الإسلام واضطرارهم إلى تعلم ما استطاعوا من العربية، وكان من بين هؤلاء الفاتحين وهؤلاء الشعوب اختلاط وأخذ وعطاء، تسرب الفساد إلى كثير من لغة العرب وبدأ يسمع كثير من اللّحن في التخاطب، قليلا في الأول ثم أخذ في الانتشار حتى لفت إليه أنظار المسؤولين وغيرهم من أهـل الحلّ والعقـد"(1) ومثل هذه الاعتبارات ينبغي أن تكون في المقام الأول لحظة قـراءتنا الواعية للظّـروف والملابسات التي أحاطـت بالجـو الاجتماعي العـام – في بعديـه الديني والثـقافي- الذي كان سائـدا في شبه

الجزيرة العربية، والذي تمخّض عنه ميلاد النّحو العربي. ويحتاج هذا النظر "إلى مزيد من التحديد والتّوضيح والضّبط؛ لأنّه لا يجوز أنْ نجازف بإصدار الأحكام على نظـر القدماء في الواقع اللّـغوي دون التّمكّن من الإطار العقدي والمنهجي الذي ظهر فيه هذا النّحو. لأنَّ نـشوء أيّ بحث يجب أن يتمّ في إطار مشـروع ثـقافي علمي متكامل " (2) إذْ لا يمكـننا أن نستوعب التّجربة النّحوية العربيّة دراسة دون أنْ تربـط ببنية الذّهنية الإسلاميّة والثّـقافة العربيّة السائدة فـي تلك المرحلـة المقصودة بالملاحـظة والبحث. ولا يمكن أنْ يتمّ ذلك إلا بالتّعرض الدقيق المحدّد إلى الظّـروف

التي هيّأت الأرضية التي احتضنت نشأة النّحو العربـي، وما وفّرته من شـروط وحوافـز نفسيّة، واجتماعيّة ودينيّة، وثقافيّة، وحضاريّة "إنَّ كثيرا من الدارسين اهتمّ بأثر الواقع القرآني على هـذه الدراسات، لكن جملة هؤلاء الدارسين أغفلوا ما يكون قد علق بهذه الدراسات من آثار ظهور الحدث العظيم بدون شك، أي ظهور النبوة في شعب العرب. نحن اليوم ندرس ظاهرة النبوة وظهورها في الحجاز بشيء من الموضوعية والهدوء ونستعظم مع ذلك الانقلاب الذي أحدثته في بقاع من العالم من الناحية التاريخية والاجتماعية؛ ولكنّنا نتناسى الآثار البسيكوسوسيولوجية التي تكون قد تركتها في المجتمع الناشئ" (3) وظاهرة الشذوذ التي ذكرناها سالفا– لا شكّ– هـي التي دفعـت بعض الباحثين من العرب وغيرهم من المستشرقين إلى القول بتأثر النّحو العربي في وضعه وبنائه بالثقافات الأجنبية، كالثقافة الهندية واليونانية والسريانية(4).إذ لا يعقل في نـظر هـؤلاء أن يقوم صرح علوم العربية عامّة والنّحو على وجه الخصوص في فترة زمنية قصيرة جدا بالنسبة لمختلف مراحل عمر العلوم والفنون التي تنتجها عقول البشر على امتداد خط الزمن. لكن القراءة الواعية في الظروف والملابسات التي تمت الإشارة إليها أي تلك التي أحاطت بنشأة النحو العربي وبناء صرحه القويم تفند هذا الرأي المغرض، وتوصلنا هذه القراءة إلى النتيجة التي مفادها: أن النحو العربـي ولد عربيا في بيئة عربية خالصة،لا تشوبها شائبة ولا دخيلة. ولد بالبصرة في أرض العراق بعيدا عن ضوضاء السياسة وأهلها،. والزمن الذي ولد فيه أيضا لم تسجل فيه رواية واحدة صحيحة – يطمئن إليها المنصفون من أهل العلم والفكر – توحي بتأثر واضعي النحو الأوائل بالثقافات الأجنبية. إن الطبقة الأولى من علماء العربية كانت ثقافتهم وعلمهم عربيين خالصين، وقد وهبوا إلى جانب علمهم الغزير قدرة فائقة في استنطاق واستقراء النصوص وتجريد دوالـها واستعمال القياس،وقوة وبعدا في النظر و التأويل والتفسير والتدليل على صحة نظرياتهم وآرائهم في المسائل اللغوية بصفة عامة والمسائل النحوية بصفة خاصة.

إنّ هذه المواصفات التي اتصف بها الرعيل الأول من مؤسسي النحو العربي لـهي من أهم المقاييس والشروط العلمية التي يشترط توفرها في الباحث في مختلف الميادين العلمية كما هو معروف في وقتنا الحاضر. وبهذه المواصفات استطاعت هذه الطبقة الأولى أنْ تؤسس لعلم جديد غير موجود من ذي قبل وأن تبتكر له مصطلحاته الدقيقة وتضع له المناهج المناسبة وتضبط له مدونته زمانا ومكانا،انتهاء إلى بناء النّظريّة اللّغويةّ الشاملة التي تضمنها "الكتاب" لسيبويه. وإذا كان المثل الروسي يقول إذا أردت أن تعرف طبيعة نهر فنبغي عليك أن تصعد ثانية إلى منبعه. فإن هذا المثل ينطبق إلى حد بعيد عـلى طبيعة منشأ النحو العربي، بحيث سبقت نشوءه حركة ثقافية وعلمية ، بقيت ملازمة له بشكل حثيث تطلبه ويطلبها وكان قوام هذه الحركة الاهتمام بالقرآن الكريم قراءة ودراسة وتـفسيرا.

بعد استقرار حركة الفتوحات الإسلامية، بدأ جمهور من العلماء ينظمون الحلقات في المساجد يقرئون الموالي القرآن الكريم بطريقة سليمة من اللحن ويفسرونه لهم معتمدين في ذلك على المسموع من كلام العرب الفصيح المتضمن أمثالا وشعرا وحكما. وتعد البصرة بحق الموطن الأصلي لنشوء هذه الدراسات القرآنية، إذ بعدما تم جمع القرآن في عهد الخليفة الراشد الثالث اتجهت العناية إلى النص القرآني قراءة ودراسة وتفسيرا. وبما أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، وفق أساليب العرب وطرائقهم في التعبير والكلام كان لزاما على هؤلاء العلماء أن يستعينوا في تفسيرهم للنص القرآن بلهجات القبائل العربية الفصيحة وأساليبها في الكلام، فاتجهت همة هؤلاء العلماء إلى جمعها وتدوينها مشافهة من أصحابها أنفسهم لا ممن يروونها .

إنّ هذا التّحري العلمي من أهمّ المبادئ التي بنيت عليه اللسانيات الحديثة وخاصة لدى علماء اللسانيات الأنثروبولوجية الأمريكية، عندما أخذوا في تدوين ودراسة لغات الهنود الحمر بأمريكا . وهكذا نشأت فكرة تدوين اللهجات العربية. وبما أن البصرة كانت حاضرة العلم والثقافة والفكر، بسبب احتضانها الكثير من العلماء الذين اشتهروا بالقراءات القرآنية وحفظهم لكلام العرب. فكان من ثمار هذه الحركة الفكرية والعلمية نزوح جمهرة من العلماء إلى البوادي العربية، لتسجيل ما يسمعونه من الأعراب، وذلك بعد مخالطتهم ومشاركتهم في حياتهم اليوميّة، فكانوا يستمعون إلى الشّعراء الوافدين إلى سوق "المربد" ويقومون بتسجيل أشعارهم. وتتفق الكثير من الروايات التاريخية مع تعدد مصادرها أن المسلمين من غير العرب واجهوا مشاكل عويصة في تناولهم للقرآن الكريم قراءة فهما وحفظا وذلك لأن الخط الذي كتبت به المصاحف لم يكن معربا.

ومن هنا تبدو مدى أهميّة العمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي(ت– 69 هـ) إذ يعتبر الرائد الأول في عملية التأسيس للنحو العربي" وهو أول من أسس العربية، ونهج سبلها ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب، وصار سراة الناس ووجهوهم يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف، وحروف النصب والرفع والجر والجزم" (5) حيث تذكر الكثير من الروايات أنه أول من قام يضبط العلامات الإعرابية في المصحف الشريف للحفاظ على سلامة النص القرآني، واجتناب التحريف الناجم عن اللّحن في قراءته فاهتدى في ذلك وعن طريق عملية تجريدية واجتهاد شخصي إلى ابتكار رموز "نقط" تدل عن مختلف الحالات الإعرابية من رفع ونصب وجر. يقول أبو الأسود الدؤلي لكاتبه :« إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين فابتدأ أبو الأسود يقرأ والكاتب ينقط حتى أتما نقط المصحف» (6)

إن القراءة الأولية والتمعن في هذا النص القصير الموثق تاريخيا تبين لنا أن أبا الأسود قام بهذا العمل الرائع عن طريق التحري الميداني معتمدا على تجاربه الشخصية ومشاهداته المستمرة وتأمله الطويل في طريقة أداء ونطق الناس لآي القرآن الكريم حروفا وكلمات، ونعني بذلك أنه قد يكون قام بإجراء ملاحظات قصدية هادفة، وهو يراقب شفاه الناطقين للخطاب القرآني، ومن ثمة لاحظ مختلف أوضاع حركة الشفتين أثناء نطقهم للحروف المتحركة، أي في حال الكسر وحال الرفع و حال الفتح و التنوين المصاحبة للكسرة والفتحة والضّمة. وقد عبّر عن ذلك بكسر الفم وفتحه وضمّه أو أتبعه بغنّة.

وبقي الأمر على حالته المعهودة بالنّسبة للحركات الإعرابية إلى غاية أنْ تفطن الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ بحكم التجارب الصوتية التي كان يلجأ إليها لمعرفة طبيعة وخصائص الحروف العربية ـ إلى أنّ الفتح والضّم والكسر، ما هي إلا نطق مخفف للحروف اللينة : الألف والواو والياء . واهتدى إلى وضع أسماء (مصطلحات) ورموز لهذه الحركات التي اعتبرها من جنس الحروف اللينة فرمز للفتحة بالألف الصغيرة المائلة توضع فوق الحرف وللضّمة بواو صغيرة توضع فوق الحرف، وللكسرة بقص طرفي الياء توضع تحت الحرف. والملاحظ هنا أن تسمية هذه الرموز مأخوذة من تعبير أبي الأسود نفسه عندما كان على يملل على كاتبه بقوله إذا فتحت، ضممت، كسرت.

إنّ هذا العمل الفذ ينبغي أن نتوقف عنده طويلا عندما نريد الحديث والبحث في مشكلة المصطلح التي تعيشها ثقافتنا العربية المعاصرة ، وفي ظل توافد الغزير والسريع لكثير من العلوم والمعارف الغربية. ونعني بذلك أن مشكلة المصطلح التي باتت تؤرق الكثير من علمائنا وباحثينا في مجال علوم اللغة وغيرها، لا يمكن أن تعالج وتوجد لها الحلول في غياب مشروع حضاري عربي إسلامي، توفر له بيئة وظروف تاريخية وحضارية تساعد على الإبداع والإنتاج المعرفي الأصيل، كما حدث بالنسبة لأسلافنا، بحكم أن لكل ثقافة أو حضارة طابعها الخاص تتطبع به كل أنواع المنتوجات العلمية والثقافية والحضارية. وخصوصية هذا الطابع يمكن للمتتبع أن يلحظها في أعمال العلماء ضمن الحوادث العلمية والثقافية المتعاقبة عبر مسارات الحضارة الإنسانية المتعاقبة.

يدلّ هـذا الحدث العلمي المبتكر في ذلك العهد من القرن الأول الهجري على حـدّة ذكاء أبي الأسود وسعة ثقافته ورجاحة عقله. وقد اعتبره الجاحظ في البخلاء من المقدمين في العلم، وكان هذا العمل الذي قام به أبو الأسود مؤشرا حقيقيا للبدء في عملية البناء والتأسيس لعلم جديد ،إنه علم النحو أو علم اللسان العربي، وتبعته جمهرة من تلامذته الأفذاذ أمثال: عنبسة الفيل، وابن هرمز، ويحي بن يعمر ونصر بن عاصم، وغيرهم ممن نقلوا رواياتهم مشافهة عن أبي الأسود الدؤلي، ودونوها في رسائلهم.

وتابع نصر بن عاصم الليثي (ت – 90هـ) وهو أحد تلامذته الأذكياء العارفين بكلام العرب المسيرة العلمية لأستاذه بكل أمانة وجدية وتمثل عمله الرائع في وضع نقط الإعجام وتمييزه بينها وبين نقط الإعراب التي وضعها أبو الأسود. وتمّ ذلك في زمن الحجاج بن يوسف الثقافي، في خلافة عبد الملك بن مروان كما تذكر بعض الروايات الموثقة (7). فبدأ بجمع الحروف العربية إحصاء وتصنيفا، ثم قام بتوزيعها في مجموعات متشابهة مميزا بينها بالنقط أفرادا وأزواجا فوضع بعضها فوق الحرف وبعضها تحت الحرف. ويعتبر ترتيبه للحروف العـربية بـداية للترتيب الألفـبائي المعروف لديـنا حاليا.

ومن أبرز الذين تتلمذوا على يد تلامذة أبي الأسود ابن أبـي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء. هؤلاء العلماء جميعهم كان لهم علم واسع بكلام العرب وقدرات عقلية ساعدتهم على استخدام القياس واستقراء النّصوص. وأمّـا عبد الله بن أبي إسحـاق (ت –117 هـ) فقــد أحدث للنحو فروعا وبحث في ظاهرة الهمز وألف فيها كتابا، وكان بارعا في استعماله للقياس، و كان أشد تجريدا له، وقياسه طبيعي سليقيّ ليس للمنطق والجدل فيه نصيب، بل القياس الذي يعتمد على المشابهة بين الظواهر في كلام العرب، والمآخذ النحوية التي كان ينتقد فيها الفرزدق تعتبر أصدق دليل على ما ذهبنا إليه في شان طبيعة القياس. ونورد لذلك مثالا فقد انتقد الفرزدق في قوله مادحا عبد الملك بن مروان:

على عمائمنا يلقى و أرحلنا على زواحف تزجى مخها ريرِ

قال ابن أبي إسحاق : أسأت إنّما هي "ريرُ" وكذلك قياس النحو في هذا الموضع. (8) والقياس الذي يقصده ابن أبي إسحاق أن العرب في كلامها الفصيح المطرد ترفع كلمة (ريــر) لأنّ ما قبلها مبتدأ مرفوع يحتاج إلى خبر مرفوع ليتم معناه، والجر في هذا الموضع لا يصح لعدم وجود كلمة مجرورة تتبعها. ولفظ "الموضع" من بين الكثير من المصطلحات الدقيقة التي تم وضعها وتداولها بين النحاة في هذا العهد المبكر من عمر النحو العربي، إذ يدل دلالة وظيفية بالمفهوم اللسانيات البنوية الحديثة، وهذا معناه أنّ هذا الرعيل الأول من العلماء قـد أدركوا إدراكا علميّا لا لبس فيه بفضل حسهم اللغوي طبيعة ووظيفة البنية التي تخضع لها اللغة العربية ،باعتبارها نظاما متماسكا تربط بين وحداته علاقات من نوع خاص، بحيث يلفظ هذا النظام أي تغيير خارجي يهدد بنية اللغة المشكلة على هيئة محددة. وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بقوله :" إن للوحدات اللغوية مواضع خاصة في تركيب الكلام، فإذا وضعت في غير موضعها، فإمّا أن يقبح في غير الشعر،وإما أن يكون لحنا لم تتكلم به العرب"(9) وهذا المفهوم البنوي الدقيق هو ما قصده ابن أبي إسحاق بمصطلح (الموضع) ومن تلامذة ابن أبي إسحاق عيسى بن عمر الثقفي(ت – 149هـ) الذي كان حافظا للقرآن الكريم ولغريب كلام العرب كثير التأليف والكتابة وذكر له الرواة كتابين هما المكمل أو الإكمال والجامع وكان حسن الاستخدام للقياس والتّعليل والتقدير وكثيرا ما كان يلجا إلى الافتراض في تخريجه للمسائل النّحويّة.

أما أبو عمرو بن العلاء(ت 154هـ) فقد أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي وهو أحد القراء السبعة المشهورين. كان يملك قدرة عجيبة في حفظ وفهم كلام العرب وكذلك استخدام القياس. وكان يفسر الظواهر اللغوية التي تعرض له تفسيرا لغويا محضا، ويقدر العامل فيها بحسب المعنى الذي يفهمه.وكان سيبويه كثيرا ما يتعرض بالذكر لتعليلات أبي عمر في الكتاب. والحقيقة التي يذكرها الكثير من الرواة والمبثوثة في طبقات وأخبار النحويين أنه استطاع هذا الرجل الفذ أن يوجد التفسير لكثير من الظواهر الإعرابية مبنيا تفسيره على ما ورد من كلام العرب، ويروى (أن عيسى بن عمر جاء إلى أبي عمرو بن العلاء،

فقال له: يا أبا عمرو، ما شيء بلغني أنك تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال :بلغني أنك تجيز " ليس الطيب إلا المسك" بالرفع. فقال أبو عمرو: نمت يا أبا عمر وأدلج الناس، ما في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، ولا تميمي إلا وهو يرفع"(10)

أمّا رجل الزّمان وعلم النّحو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت – 170هـ) فقد عُرف بعبقرية فذةّ وعقل رياضيّ، وقدرة كبيرة على الإبداع والابتكار، ظهرت في جميع المستويات اللّغوية التي تعرض لها بالدراسة والتّحليل. وقد كان الخليل ذكيا فطنا شاعرا واستنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يسبقه إلى مثله سابق. ومن أهمّ أعماله ترتيبه للحروف الهجائية العربية ترتيبا دقيقا على أساس صوتي بحت مبينا مخارجها وصفاتها وخصائصها على نحو دقيق معتمدا على تجاربه الميدانية الخاصة. كما أنه قد عالج ظواهر لغوية وصرفية وفسرها تفسيرا صوتيا أيضا مثل: الإبدال والإدغام. أما استعماله للقياس فكان ينهج به نهجا لغويا محضا يتوكأ في على استعمالات العرب وأساليبهم دون أن يفلسف الظاهرة أو يعللها تعليلا عقليا يبعده عن الواقع اللغوي. وكان يبني قياسه ويطلق في استعماله إحساسه بالمشابهة المتوفرة بين الظاهرتين أو بين الموضوعين دون أن يتكلف استنتاجا أو يتمحل استنباطا. فكان تعليله وتفسيره للظواهر اللغوية تعليلا واقعيا، يعتمد على حدسه اللغوي، ليس فيه تأثر أو تقليد لغيره من علماء الثقافات الأجنبية. بحيث لا يكاد يخرج عن نطاق النصوص العربية الفصيحة المسموعة عن العرب الفصحاء. وقد سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو فقيل له: "عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فـــقال: إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامه، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه فإن أكن أصبت العلة، فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصّادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها. قال: إنّما فعل هذا لعلة كذا وكذا والسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك فجائز أنْ يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة .....فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها" (11) إنّ هذا النص وثيقة تاريخية أصدق على ما ندعيه بشأن أصالة علم النّحو العربي ، وحجة دامغة تدحض كل رأي يذهب مذهب التأثر بالثقافات الأجنبية.

أما سيبويه تلميذ الخليل (ت – 175 هـ) فقد أخذ العلم بالإضافة إلى الخليل أخذه عن يونس وعيسى بن عمر. وسيبويه في كتابه الذي وضعه في النحو العربي لم يكتف بجمع آراء النحاة السابقين له فحسب بل أظهر ذكاء كبيرا وحسا لغويا عظيما تجليا في ابتداعه بعض القواعد والمصطلحات وفي ترتيبه الكتاب الذي ضمنه عناصر علم النحو كلها،كما امتاز بحسن التعليل للقواعد وجودة الترجيح عند الاختلاف واستخراج الفروع من القياس الذي امتلأ منه الكتاب. فهو أوّل من ألّف كتابا في النّحو العربي يصل إلينا.هذا الكتاب الذي جمع فيه جهود العلماء الذين سبقوا الخليل وأتباعه في وضع اللبنات الأولى للنّحو العربي فتضمن التّصوّر العام والشامل لنظرية الخليل اللغوية التي تميّزت بالإحاطة والشّمول، ولعل استعمال الخليل والعلماء الذين سبقوه لمصطلح (العربية) يفسر لنا إلى حدّ بعيد هذه النّظرية الشّمولية(12) ومن هذا المفهوم الشّامل انطلق سيبويه في تحليل مادة الكتاب بدءا من المستوى التّركيبي فالصّرفي فالصّوتي مع ربط هذه المستويات كلّها بالتّفسير الدلالي.

وقد نظّم سيبويه مادة الكتاب تنظيما محكما فجعل كتابه قسمين كبيرين، فخصّص القسم الأوّل للنّحو ومباحثه، بينما أفرد القسم الثاني للمباحث الصّرفيّة واصلا إليها عن طريق دراسته لكثير من الظّواهر الصّوتيّة بدأها بباب الإدغام. والمتأمّل في موضوعات (الكتاب) يدرك للوهلة الأولى ذلك التّصور العلمي الدقيق للطبيعة البنوية للّغة العربية الذي كان يمتلكه سيبويه وأستاذه الخليل. وقد جاءت المادة اللغوية التي تناولها الكتاب متنوعة شملت أغلب مستويات التحليل للغة العربية: الصّوتيّة، والصّرفيّة، والتّركيبيّة والدّلاليّة، ولم تقصر مفهوم النّحو على الناحية الشكلية التي كثيرا ما تختزل في ظاهرة الإعراب ولم يقم بفصل البلاغة عن جسد النّحو "ولهذا لم نر سيبويه يحدث شرخا بينهما فأدرك نظم الكلمات فراح يشرح العبارات التي حدث فيها تصرّف بلاغي بتوضيح الوجه الذي يستقيم عليه المعنى كما يشرح الأساليب الكلامية بعلل نحويّة وفقهية " (13)

وإذا كانت ظاهرة التّعليل من الأسس التي قام عليها النّحو العربي، وكانت مدار الدّراسة التّحليليّة التي تضمّنها الكتاب؛ فإنّ هذا التّعليل لا يعدو أن يكون تعليلا لغويا بسيطا ومباشرا ومنهجه في ذلك يقوم على ربط التّعليل بالمعنى أو بقوانين التّركيب أو بكثرة الاستعمال وهو تعليل بوجه عام لا يخرج عن نطاقه اللّغوي، ويكاد الكتاب يخلو من تلك التّعريفات التي أثقلت كاهل القاعدة النّحوية في كتب النّحاة المتأخرين فيقول سيبويه في باب الفعل مثلا: "هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعوله وذلك قولك: ضرب عبد اللّه زيدا، فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب"(14) وهذا دليل على أنّ الفكر الذي صاغ مادة الكتاب فكر عربي محض يعتمد السليقة العربية الأصيلة الخالية من التعقيد والتّفلسف ؛فالمرجع النهائي في استنباط القاعدة وتثبيتها هو الاحتكام للمسموع من كلام العرب، مع الربط بين اللفظ والمعنى. ويرى الأستاذ مهدي المخزومي أنّ اللّغة العربيّة لا تزال تدرس إلى يومنا على تلك الأسس التي وضعها العلماء الأوائل أمثال الخليل والفراء وما أضيف إليها لا تعدو أن تكون سوى منا قشات لا تفيد البحث اللّغوي في شيء.(15)

أمّا الأستاذ حلمي خليل فيقول: "بل لعلّي لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إنّ معظم ما كتب حول العربية صرفيّا ونحويّا من ظهور كتاب سيبويه وإلى أن اتّصل علماء العربيّة في العصر الحديث بالفكر اللغوي الغربي لم يضف شيئا جديدا إلى هذا الكتاب أو إلى ما وضعته البصرة من أصول وقواعد وما أثارته من قضايا نحويّة وصرفيّة) "(16)

ونخلص إلى القول بعد هذا العرض لأهم مرحلة وأخطرها أن الثقافة اليونانية لم تجد منفذا إلى جسم النحو العربي إلا بعد نشوء هذا النحو واكتهاله ،أي بعد انقضاء عهد الاجتهاد والابتكار، وحلول عهد التقليد والاجترار.

فالنّحو العربي في طور النّشأة الأولى عربي محض في مصطلحه ومنهجه ومضمونه التحليلي. وفي هذا السّياق نقل أحمد أمين في ضحى الإسلام أنّ (إينو ليتمان – **E. Littman**) قال في إحدى محاضراته: " نحن نذهب مذهبا وسطا ، وهو أنه أبدع العرب علم النّحو في الابتداء وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه، ولكن لمّا تعلّم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النّحو الذي كتبه أرسطوطاليس الفيلسوف "(17) وهذا القول يؤيد إلى حدّ بعيد المذهب الذي تبنيناه بخصوص أصالة النّحو العربي في عهد النّشأة والبناء، فالأصول التي وُضع عليها، هي من صنيع البيئة والمناخ العربيين لا غير.

***– الهوامش والمراجع:**

1– سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو. ط:2، دار الفكر،دمشق: 1978، ص8.

2،3– حافظ إسماعيل علوي و امحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات. ط1الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت:2009.ص: .219،218

4– يربط هؤلاء تأثر النحو العربي بالثقافة اليونانية والسريانية بشخصية بأعمال حنين بن إسحاق رغم هذا الأخير لم يسبق أن عاش ولم يعايش المرحلة الخطيرة التي شهدت نشأة وبناء صرح النحو العربية، إذ تذكر نختلف المصادر التاريخية الموثقة مثل الزر كلي وابن القفطي ، أنه عاش في الفترة (194هـ . 260هـ).

5– طبقات النحويين واللغويين،لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي. تحقيق أبو الفضل إبراهيم ،ط،2 دار المعارف مصر:1973. ص21.

6– مراتب النحويين، لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.ص: 12–13.

7– عبد العال سالم مكرم، الحلقة المفقودة في النحو العربي .ط2، بيروت:1993.ص:79،.78

8– الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين. ص:32.

9– عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2،مورفم للنشر، الجزائر:2007. ص10..

10– خديجة الحديثي، المدارس النحوية. ط3،دار الأمل، الأردن:2001 ، ص:58.

11– الزجاجي أبو القسم،الإيضاح في علل النحوي. تحقيق مازن مبارك، القاهرة1978.ص:66،65.

12– حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البينوي. *دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية.* ص23.

13– صالح بلعيد، التراكيب النحويّة وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر.

14– سيبويه، الكتاب، ج1،ص14. بولاق، القاهرة:1316هـ.

15– *مهدي مخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه . ط1. منشورات المكتبة العصرية.بيروت. 1964.ص24*

16–حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي. ،ص45.

17- أحمد أمين ،ضحى الإسلام. ط10 ،بيروت: 1933.ج2 ص 292 293.